الفصاحة واللّحن في اللّغة العربيّة

كريمة أوشيش حمّاش
مركز البحث العلمي والتقني لتطويراللّغة العربيّة

الملخّص

يتناول موضوع مقالنا الوضع الذي كانت عليه اللغة العربية في عصر الفصاحة العفوية؛ تلك الملكة التي توارثها العرب خلفا عن سلف، ثم كيف تغيرت هذه الملكة وزالت السليقة اللغوية بمجيئ الإسلام واختلاط العرب بغيرهم من الأجناس البشرية، حيث ظهر ما يسمى باللحن؛ الخطأ اللغوي الناجم عن احتكاك اللغة العربية باللغات الأخرى، وبانتشاره واستفحاله زاغ الأداء الفصيح للغة العربية في مستوى التخاطب اليومي العفوي، وحلت محله العامية، وأبقت الفصحى على مستوى واحد انحصر في المقامات الرسمية.

الكلمات المفاتيح

اللغة - الفصاحة - رقعة الفصاحة - الاحتكاك اللغوي - اللحن.

مقدّمة

كانت اللغة العربية ملكة على ألسنة العرب القدامى الذين سماهم النحاة بالعرب الموثوق بعربيتهم، وممن ترضى عربيتهم توارثوها خلفا عن سلف؛ لأنهم نشأوا في بيئة غير متأثرة بلغات أخرى غير العربية، فأتقنوا اللغة عن فطرة وبقوا على سليقتهم اللغوية إلى غاية الفتوحات الإسلامية، حيث بدأت رقعة الفصاحة تتقلص تدريجيا وعدد الفصحاء السليقيين يقل؛ وباحتكاك العرب بغيرهم من الأجناس البشرية وقع هناك تداخل بين لغات العرب ولغات الأعاجم، وأدى ذلك إلى فساد اللسان العربي وظهور ما يسمى باللحن، وبانتشار الإسلام واختلاط العرب بغيرهم زادت التحولات اللغوية، فأوّل من ظهر عنده اللحن العرب الذين نشأوا مع أبناء العجم أو في بيئة يكثر فيها العجم، ثم ظهر عند الأعاجم الذين اكتسبوا اللغة العربية لغة ثانية بعد لغتهم الأولى الأعجمية، فسرعان ما انتقل إلى ألسنة أهل الحواضر عجما كانوا أم عربا، كما انحصر في فترة موالية عند عامة الناس، ولكنه امتد بعد ذلك تدريجيا إلى الخواص؛ أي إلى الطبقة المثقفة وأهل الحكم والخلافة، ثم تسلل في نهاية المطاف إلى أهل البادية، وشيئا فشيئا أخذ استعمال اللغة العربية الفصيحة يتقلص على ألسنة الناس في التعبير العفوي بعدما أصابتها تغييرات كثيرة كسقوط الإعراب في جميع الأحوال والتنوين وعلامات التثنية واختزال بعض الأدوات*، وأصبحت الفصاحة مكتسبة وغيرعفوية؛ لأنّ الفرد لا يحصل عليها كملكة لسانية من بيئته اللغوية لعدم بقاء هذه البيئة على فصاحتها، بل بالتلقين وباللجوء إلى معلم.

1. الفصاحة قديما

يرتبط مفهوم الفصاحة عند العرب قديما ارتباطا وثيقا بمفهوم اللّغة، ولذا علينا أن نكشف عن مفهوم "لغات العرب" قديما قبل أن نتعرّض إلى مفهوم الفصاحة عندهم.

1.1. مفهوم لغات العرب

أطلق مفهوم "لغات العرب" قديما على التأديات المختلفة التي يستعملها الناس في إطار اللّغة العربية عامة، ولقد ورد مصطلح لغات العرب بكثرة في كتب القدماء ككتاب سيبويه (ت 180 هـ) في قوله: "والرّفع في جميع هذا عربيّ كثير في جميع لغات العرب"[1]. والخصائص لابن جنّي (ت 392هـ) في قوله: "فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ"[2]. والمراد من عبارة "لغات" من خلال ما ذكره النحاة الأوائل ليست هي اللهجة بأكملها وإنما التنوّعات اللّهجية أو الكيفيات الخاصة في تأدية عنصر لغوي، فقد ذكر لنا سيبويه أنّ كسر أوائل الأفعال المضارعة للأسماء فيما ماضيه فَعِلَ "لغة جميع العرب إلاّ أهل الحجاز وذلك قولهم: أنت تِعْلَمْ ذاك، وأنا إِعْلَمْ وهي تِعْلَمْ ونحن نِعْلَمْ ذاك... وجميع ما ذكرت مفتوح في لغة أهل الحجاز

* لأنّ لغة التخاطب اليومي هي أكثر عرضة للخطأ بخلاف لغة التحرير، وبالتالي أسرع المستويات إلى التحول البنوي من لغة الكتابة.

[1]. ينظر، سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط 3؛ بيروت: عالم الكتب ، 1983، ج 1، ص 216.

[2] عثمان أبو الفتح ابن جنّي، الخصائص، تحقيق محمّد علي النجار، ط 2؛ بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر، ج 2، ص 12.

وهو الأصل"[3]. ومما نقله لنا سيبويه كذلك ما يسكن استخفافا من لغة بكر وتميم وهو في الأصل متحرّك فقال: "وذلك قولهم في فَخِذ: فَخْذ، وفي كَبِدْ: كَبْدْ، وفي عَضُدْ: عَضْدْ، وفي الرُجُلْ: رَجْلْ، وفي كَرُمَ الرَجُلْ: كَرْمَ، وفي عَلِمَ: عَلْمَ، وهي لغة بكر بن وائل، وأناس كثيرين من بني تميم"[4]. وهذه اللغات (التأديات) لم تكن شديدة الاختلاف إلى درجة عدم التفاهم بها، وهذا ما يؤكده ابن جنّي في قوله: "هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته محتقر غير محتفل به ولا معيج عليه وإنما هو في شيء من الفروع يسير، وأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه"[5]. وكانت هذه اللّغات تتخذ معيارا لتبيان الصواب من الخطأ، فلغات العرب على اختلافها كلّها حجّة مثلما قال ابن جنّي في كتابه الخصائص في باب اختلاف اللّغات وكلّها حجّة[6]، ويتجلّى هذا الاختلاف في عدّة مواضع من الاستعمال اللّغوي مثل الأصوات والكلمات والتراكيب.

– **الأصوات:** وذلك مثل عنعنة تميم الذين كانوا يقلبون الهمزة في بعض كلامهم عينا فينطقون "عن" عوض "أن"، أو مثل كشكشة ربيعه إذ يضيفون إلى كاف ضمير المؤنّث شينا في الوقف: فيقولون رَأَيْتُكِشْ، وأعْطَيْتُكِشْ، وأكْرَمْتُكِشْ، ومَرَرْتُ بِكِشْ وتكسر قبيلة ربيعة أوائل الأفعال فتقول: تِعْلَمُونَ وتِفْعَلونَ وتِصْنَعُونَ بكسر أوائل الحروف[7].

– **الألفاظ:** (المفردات) كقول أهل الحجاز: "قُلَنْسِيَة" وكَدْتُ تَوْكِيدًا، بينما تميم يقولون: "قُلَنْسُوَة" وأكَدْتُ تَأكِيدا[8]. ويفسّر ابن جنّي كثرة الألفاظ التي وردت للشيء الواحد بسبب اختلاف لغات العرب قائلا: "وكلّما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد"[9]. ومن الأمثلة التي ساقها لنا ابن جنيّ في الاختلاف في الصيغ واللّفظ واحد نحو قولهم: "هي اللّبن ورُغْوَتُه، ورغْوَتُه، ورُغَاوَتُه، ورغَاوَتُه، ورُغَايَتُه"[10].

– **التراكيب:** لقد تباينت لغات العرب أيضا في استعمال بعض التراكيب كإعمال الحجازيين لـــ "ما" وقد شبّهوها بليس فقالوا: ما عبدُ اللّهِ أخاك، وما زيد منطلقا. بينما بنو تميم لا يعملونها ويجرونها مجرى أمّا وهل...[11].

وممّا تقدّم نستنتج أنّ ما كان يسمّيه العرب القدامى بلفظة "اللّغات" ما هو إلاّ كيفيات خاصة تميّزت بها قبيلة أو بعض الأشخاص عن غيرهم في تأدية بعض العناصر اللّغوية الصوتية أو

---

[3] سيبويه، الكتاب، ج 4، ص 113.
[4] المصدر نفسه، ص 113.
[5] ابن جنّي، الخصائص، ج 1، ص 244.
[6] ينظر، المصدر نفسه، ص 10.
[7] المصدر نفسه، ج 2، ص 11.
[8] جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، القاهرة: البابي الحلبي، ج 2، ص 275.
[9] ابن جنّي، الخصائص، ج 1، ص 374.
[10] المصدر نفسه، ص 373.
[11] ينظر، سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 57.

اللفظية أو التركيبية، وهي صحيحة وسليمة ما مادام العرب استعملوها؛ بمعنى أنّ استعمال العرب لها هو أهم مقياس لصحتها لأنها قد لا تخضع للقياس.

وللإشارة فإنّ العربية الفصحى في ذلك الوقت كغيرها من اللغات الأخرى كانت تؤدى بمستويين من التعبير؛ مستوى التعبير الترتيلي أو الإجلالي الذي يستجيب لما يسمّى بمقام الانقباض، وفيه تظهر عناية المتكلّم الشديدة بما ينطق من ألفاظ، وما يحدثه من صياغة بتحقيق الحروف، ولا يختزل شيئا من الألفاظ، ويستعمل هذا المستوى من التعبير في جميع المقامات التي تتصف بالحرمة، ومستوى التعبير الاسترسالي الذي يخضع لنواميس العفوية ويؤدى في المواقف المأنوسة والحاجات العادية، وفيه يسترسل صاحبه عند مخاطبته لشخص مأنوس، ويمتاز عن الأوّل بكثرة الإدغام والاختلاس في تأدية الحروف، والكلم والحذف والتقديم والتأخير وكثرة الإضمار، وكلا المستويين كما يرى الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح كانا فصيحا مرضيا عنه إذ لم يكن إلاّ وجهان في أداء العرب لا يختلف أحدهما عن الآخر من حيث البنية النحوية والصرفية.

2.1. مفهوم الفصاحة قديما

الفصاحة هي ما ثبت في لغة العرب الذين ارتُضيت عربيّتهم لبقائهم على سليقتهم؛ لأنّهم نشأوا في محيط غير متأثر بلغات أخرى، وبالتالي لم تختلط لغتهم بغيرها، فهي صحيحة وسليمة من كلّ ما هو ليس من لغتهم. "فالفصاحة هاهنا هي صفة من يرتضي لغتَه كلُ من ينطق بنفس اللغة على أصلها بدون تغيير، وبالتالي عدم وجود لأي شيء في لغته لا ينتمي إلى لغة هؤلاء الناطقين"[12]. و"الفصيح الذي يجوز عند علماء العربية الأخذ بلغته هو إذن الناطق الذي اكتسب ملكته اللغوية في العربية الفصيحة (لغة القرآن) بالسليقة بدون تلقين وفي بيئة من السليقيين الناطقين بتلك اللغة..."[13]. وهي عند ابن جنّي "اللّغة التي تداولتها الألسنة العربية الفصيحة والسليمة من كلّ عيب أو شوب في زمن ومكان معيّن"[14]. وتطلق أيضا لفظة الفصحى على لغة المدوّنة العظيمة التي قضى علماء اللّغة الأوائل في جمعها سنين طوال.

3.1. رقعة الفصاحة وتطورها

1.3.1. في العصر الجاهلي

ظلّ العرب في الجاهلية داخل جزيرتهم لا يبرحونها إلاّ قليلا، وكان لسانهم هو العربية؛ تلك الملكة التي توارثوها خلفا عن سلف، فكانت هذه الملكة راسخة في ألسنتهم تمكّنهم من التعبير الفصيح العفوي، فانساقوا وراء مكتسبات لغوية أولى مكّنتهم من التصرّف في اللّغة والتفطن لمجاري الكلام الفصيح وإن لم يحسنوا ذلك صنعة وعلما. وهذا ما لاحظه ابن جنّي عند الأعرابي الذي استطاع أن يبني من لفظ "مَلَكَ" صيغة فاعل وهو لا يعلم من التصريف شيئا: "فإن قلت: فمن

[12] عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2007، ص 36.

[13] المرجع نفسه، ص 40-41.

[14] ابن جنّي، الخصائص، ج 1، ص 373-383.

أين لهذا الأعرابي - مع جفائه وغلظ طبعه - معرفة التصريف، حتى بنى من (ظاهر لفظ) "مَلَكٍ" فاعلا فقال مالك؟ قيل: هبه لا يعرف التصريف، أتراه لا يحسن بطبعه، وقوة نفسه ولطف حسّه هذا القدر! هذا ما لا يجب أن يعتقده عارف بهم، أو آلف لمذاهبهم؛ لأنّه وإن لم يعلم حقيقة تصريفه بالصنعة، فإنّه يجدها بالقوة*"[15]. ويقول ابن جنّي كذلك: "وإن مكّنت القول في هذا الموضع ليقوى في نفسك قوة حس هؤلاء القوم، وأنّهم قد يلاحظون بالمنّة والطباع، ما لا نلاحظه نحن عن طوال المباحثة والسماع"[16]. فلم تكن للعرب إذن في العهد الجاهلي قواعد يقيسون عليها لغتهم، ولكنّهم كانوا يتكلّمون لغتهم دون أن يعوا تلك القوالب النحوية التي تضبط هذه اللّغة، فكانوا يضبطونها بشعورهم اللّغوي الحيّ، حيث كانوا يحسّون بوجود قانون لغوي تنتظم به لغتهم، سواء أكان هذا القانون صوتيا، أم اشتقاقيا، أو تركيبيا، أو دلاليا، وهؤلاء القوم هم "العرب الذين كانوا اكتسبوا... اللغة التي ينطقون بها - في سائر أوقاتهم - من بيئتهم الأولى التي لم تبتعد لغتها عن عربية القرآن وكل العرب الذين كانوا مثلهم"[17]. أي العرب الفصحاء الذين أتقنوا اللّغة عن فطرة، وبقوا على سليقتهم اللّغوية.

2.3.1. في النصف الثاني من القرن الأول قبل الهجرة وحتى ظهور الإسلام

في هذه المرحلة بقيت رقعة الفصاحة في الأماكن نفسها التي حدّدت من قبل إلاّ أنّ حدودها بدأت تعرف بدقة، على الرغم من تمصير الأمصار الجديدة ونزول من كل القبائل فيها، وبظهور الإسلام ونزول القرآن بلسان عربي مبين احتفظ العرب بأشعارهم لتفسير كلام اللّه؛ لأنّ لغة القرآن هي لغة الشعراء ولغة العرب قبل أن يختلطوا بغيرهم، فمن هنا نفهم أنّ لغة القرآن هي نفسها لغات العرب (الكيفيات الخاصّة لكلّ قبيلة في استعمال لفظ أو عبارة) التي كانوا يتخاطبون بها يوميا، وليست خاصّة بالشعر فقط؛ لوجود العناصر اللّهجية في القرآن والشعر بكثرة.

3.3.1. في القرن الأوّل من الهجرة

وفي القرن الأوّل من الهجرة بعد ظهور الإسلام وانتشاره خارج شبه الجزيرة العربية واختلاط العرب بغيرهم من العجم المستعربين، "تغيرت رقعة الفصاحة بمرور الزمن وهو تغير تاريخي طبيعي حصل لأسباب اجتماعية ديموغرافية مثل تنقل القبائل واستيطانها أراض غير أراضيها الأصلية وذلك قبل ظهور الإسلام وبعده إلاّ أنّ أعظم حادث سبّب التغير العميق هو ظهور الإسلام وانقسام الناطقين بالعربية بعد ذلك - بعد الجيل الأوّل - إلى من بقي على ملكته اللغوية من الآباء والأبناء وكانوا كثرا في القرن الأول وعلى من تأثر بكلام العجم من سكان المدن وكل من لم تكن فيه هذه الملكة سليمة إلا من بعض الجوانب كالمولدين من العرب والعجم وفي ذلك طبعا درجات"[18]. ولتأثّر البيئة العربية بلغات أخرى كالفارسية والتركية والبربرية بدأ الوضع اللّغوي

* القوة هي الطبع والحسّ.

[15] ابن جنّي، الخصائص، ج 3، ص 275.

[16] المرجع والجزء نفسهما، ص 276.

[17] عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 61.

[18] المرجع نفسه، ص 69، 70.

يتغيّر شيئا فشيئا، وبدأ عدد الفصحاء السليقيين يقلّ حتى انتهى عهد الفصاحة العفوية، فزال المستوى الاسترسالي الفصيح بزوال السليقة اللّغوية، وصار المستوى المرتل من العربية الفصحى يكتسب عن طريق التعليم والتلقين. وهذا ما أدّى إلى نشأة اللّحن وانتشاره وفي هذا المعنى نجد أبا بكر الزبيدي (ت 379 هـ) يقول: "ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر إسلامها تتبرع بالسجية وتتكلم عن السليقة حتى فتحت المدائن ومصّرت الأمصار ودوّنت الدواوين"[19]. لأنّ التعايش الذي حصل بين الشعوب غير العربية والشعوب العربية خلق نوعا من الاحتكاكات اللّغوية حيث تعرّضت العربية على لسان الأجيال الجديدة إلى انحرافات عميقة واستعمالات لغوية جديدة امتدّ استعمالها إلى ألسنة الأجيال اللاحقة. حيث كانت اللّغة العربية تتّخذ على ألسنة المستعربين كيفيات غير مألوفة من العرب الفصحاء، وكانت تتحوّل على ألسنة أصحابها، فحتى الفصحاء أو الفصيح كان يسمع لغة غيره فيها لحن حتى سرت في كلامه هو أيضا. ولما أحسّ العرب بهذا الخطر الذي يهدّد لغتهم وقرآنهم، فكّروا في وضع القواعد لهدف أساسي هو الاحتفاظ بنظام العربية كاملا وصيانة لغة القرآن من التحريف، وتمّ التقعيد لها عن طريق جمع المادة اللّغوية من الأشعار والأمثال والحكم، ورصد الظواهر اللّغوية؛ بالاستقصاء الواسع والدقيق للعبارات والتراكيب العربية الفصيحة واستنباط القواعد منها. وقد شهدت سنة تسعين للهجرة انطلاق التحريّات اللّغوية الواسعة، حيث انتشر العلماء الأوائل في البادية يجمعون كلام العرب من أفواه فصحائهم بالسماع المباشرمن جميع القبائل العربية من أهل الوبر وأهل المدر التي كانت تتكلم باللغة التي نزل بها القرآن. وكان إلحاحهم في القرون الأربعة الأولى للهجرة على: أي القبائل أو الأقاليم ستؤخذ عنها اللّغة الفصيحة كحجّة؟ فتنبّهوا إلى أنّ العربية الفصحى تنبع من ثلاثة مصادر رئيسية* هي: القرآن والشعر العربي وكلام العرب الفصيح الذين لم يعرفوا اللّحن ولم يختلطوا بالأعاجم. فالمدونة اللّغوية العربية التي اعتمدت كقاعدة معطيات لتحليل بنية اللّغة، واستخراج نظامها من القواعد وغيرها كانت تشتمل على النص القرآني، ثمّ على الشعر العربي وكلام العرب من أمثال وكلام عفوي سمع منهم ودوّن، وبالاحتجاج بهذه المصادر الثلاثة أثبتوا صحّة استعمال كلمات وتراكيب بدليل نقلي يصحّ سنده إلى العرب الفصحاء سالمي اللّسان، وقد تقيّد علماء اللّغة عند جمع المدوّنة العربية بعدّة معايير منها:

المقياس الجغرافي

هناك من يرى أنّ اللّغة المدوّنة جمعت من سكان البادية ولم تجمع من سكان المدن والحواضر ولا من سكان المناطق المجاورة للأعاجم، وهذا خوفا من التأثير اللّغوي الذي قد ينجم من جرّاء احتكاك العربية بلغات الأمم غير العربية. وفي هذا يقول أبو نصر الفارابي في كتابه الحروف حسب ما ورد في كتاب الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: "القبائل التي نقلنا عنها اللّغة العربية وبها اقتدي وعنها أخذ اللّسان العربي هي: قيس، تميم وأسد ... من هذه القبائل أخذنا أكبر قسم من

---

[19] أبو بكر الزبيدي، لحن العوام، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة: المطبعة الكمالية، 1964، ص 4.

* هي مصادر غير مستقلة عن بعضها البعض؛ لأنّ اللغة واحدة، بل خطابات وتأدية للغة واحدة، والتنوع اللغوي ظهر في كل هذا المسموع بدون استثناء.

المعطيات والمعلومات، ثمّ تأتي بعد ذلك هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ أي شيء من القبائل الأخرى ..."[20]. حسب هذا النص الصريح نفهم أنّ النحاة العرب الأوائل قد احتجوا بلهجات بعض القبائل العربية وهمّشوا لغات القبائل الأخرى التي اعتقدوا أنّ ألسنتها قد لانت لمخالطة الأعاجم، ولكن الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح يرى أنّ الأمر ليس كذلك "إذ يوجد في المدونة العدد الكبير من الأشعار التي ينتمي أصحابها إلى تلك القبائل التي ذكرها الفارابي على أنّها متروكة ... فها هي ذي النصوص قد وصلنا منها الشيء الكثير من غير القبائل النجدية إلاّ أنّ الصحيح هو أنّ أهل نجد هم آخر من بقوا على فصاحتهم وذلك إلى نهاية القرن الرابع فقط"[21]. وقد استطاع الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في كتابه "السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة" أن يحدّد المناطق الفصيحة ومن كان فيها من القبائل والأشخاص الذين دوّن كلامهم ممن كان ينتمي إلى تلك القبائل وذلك من أقدم العصور إلى العصر الذي اختفى فيه أصحاب الملكة اللغوية، واعتمد في ذلك على النصوص التي دونها العلماء لأهل تلك المناطق والقبائل. فالفصاحة في القرنين الأول والثاني لم تكن مقصورة على حدّ قول عبد الرحمن الحاج صالح على أهل البدو*، ولا على العرب القدامى؛ لأنّ المقياس الوحيد الذي أخذ به النحاة هو بقاء الملكة اللغوية العفوية عند بعض العرب وتغير هذه الملكة عند غيرهم على مر العصور لا في عصر واحد، ولا لدى العرب الأقحاح؛ لأنّ الأعجمي الأصل العربي المنشأ يمكن أن يبلغ ما يبلغه العربي الأصيل من القدرة على التعبير الفصيح. وهذا يدلّ على أنّ الفصاحة قد ضاقت رقعتها في نهاية القرن الثاني وكلّنا يعرف ما قاله ابن جنّي في باب اختلاف اللّغات وكلّها حجّة: "... وليس لك أن ترد إحدى اللّغتين (فيما يخصّ إعمال ما) بصاحبتها؛ لأنّها ليست أحقّ بذلك من رسيلتها لكن غاية ما لك في ذلك أن تتخيّر إحداهما فتقوّيها على أختها هذا حكم اللّغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين، فأمّا أن تقل إحداهما جدا وتكثر الأخرى جدا فتأخذ بأوسعهما رواية، وأقواهما قياسا،..."[22]. وهذا يعني أنّ الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ.

المقياس البشري

لم تؤخذ اللغة الفصيحة عند تدوينها من كلّ العرب؛ لأنّ نحاة العرب القدامى أجمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بعربيّته وفصاحة لسانه وسلامته، فهم لا يحكمون على اللّغة بالفصاحة إلاّ بعد أن يتحرّوا عن قائلها ليتأكّدوا من نسبه، وخلوص عربيته من العجمة، ومن الاختلاط بمن يشتبه في لغته من سكان أطراف الجزيرة ممن جاوروا غير العرب السليقيّين، وذلك باستيفاء ما يأتي[23]:

---

[20] A. Hadj-Salah, Linguistique arabe et linguistique générale: essai de méthodologie et d'épistémologie du 'ilm Al-'Arabiyya, Paris-Sorbonne: 1979, tome I, p. 68.

[21] عبد الرحمن الحاج صالح، "الشعر ديوان العرب" بحث ألقي في ندوة نظمتها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في غرداية، الجزائر عام 1990.

* إذ كانت رقعة الفصاحة العفوية في بداية القرن الثاني يعيش الكثير من أهلها في الحواضر.

[22] ابن جنّي، الخصائص، ج 2، ص 10.

[23] عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 38، 39.

1- كون الناطق ينطق بكلام "عربي" بالتمام سليما من الخطأ اللغوي الذي لا يعرفه الفصحاء إطلاقا.

2- كون هذا الناطق يتكلم بالواضح من الكلام بالنسبة لجميع أفراد المجتمع العربي الفصيح ولما يستعمله أكثر العرب الفصحاء.

3- كون الناطق الفصيح - أيا كان بدويا أم حضريا- اكتسب العربية الفصيحة من بيئته التي نشأ فيها؛ أي أن تكون لغته الأولى وألا يكون تعلمها من ملقن. ثم بعد النصف الثاني من القرن الثاني ألا يكون الفصيح أطال الإقامة في الأماكن التي كان يكثر فيها الكلام الملحون فيأخذ من هذه البيئة اللحن بالسليقة أيضا.

ولم يكتف المحققون لإثبات فصاحة المتكلم بهذه الشروط، بل استعملوا كذلك مقياسا آخر هو مقياس الفهم* كاختبار يمكن أن يثبت به صحة أو عدم صحة ما يسمع من فم الوارد من لغة العرب؛ وذلك بأن يقرأ على مسامعه عبارات فيها خطأ للتأكد من قدرته على التمييز بين الخطأ والصواب.

الشيوع في الاستعمال

اتخذ النحاة الأوائل وخاصة سيبويه "الشيوع في الاستعمال" معيارا لضبط اللغة العربية، فبنوا القياس على المطرّد، وأمّا الشاذ فقالوا إنه يحفظ ولا يقاس عليه، فالقياس عندهم يعتمد على الشواهد كثيرة التداول بين العرب الخلّص من الذين اعترف لهم بالفصاحة وابتعدوا عن مظان الخطأ. فسيبويه كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: "لا يطلق صفة الفصاحة إلا على الناطقين لا على كلامهم فكلما ثبت عنده أنّ ما سمعه من الكلام من العرب هو حقيقة عربي فإنه يكتفي بوصفه كذلك إلا أنّه يعتمد في ذلك على مقياس كثرة العرب الفصحاء الذين يستعملون هذا الذي سمعه؛ فالمسموع عنده يجب أن يكون شائعا معروفا مأنوسا لفظا ومعنى مفردة كانت أم تركيبا أم حرفا ومخرجا"[24]. والأمر نفسه عند ابن جنّي فهو يرى في كتابه الخصائص أنّه في استعمال اللغة العربية يجب اختيار ما هو أكثر ذيوعا أي ما هو شائع[25]. وقال قبله ابن دريد "إذا وجدنا كلمة شائعة على لسان وارد واحد يجب الامتناع عن اعتبار هذه الكلمة تنتمي إلى المعيار"[26]. وعلى غرار المبرّد يعتبر ابن الأثير الفصيح ما هو فصيح عند الجميع[27]. فالمعيار المأخوذ إذن كان قائما خاصة على أساس الأكثر شيوعا في كلام العرب، أمّا ما خالف الأكثر والأشيع، فلا يهدره ولا يخطئ قائله، ولكن يعتبره لغة خاصّة، كما يعدّه عربيا فصيحا.

4.3.1. من القرن الثاني إلى نهاية القرن الرابع

في هذه الفترة انتشر اللحن في التعبير العفوي، واستفحل الخطأ اللغوي؛ حيث أصيب نظام

* لأنهم عجزوا عن فهم ما يقوله غير الفصيح لعباراته الملحونة وخاصة رفع المفعول وجر الفاعل وغير ذلك مما لا يمكن أن يسمى عربيا، ويحصل ذلك كلما كان الإعراب ضروريا لحصول الفهم... ينظر، عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي ومفهوم الفصاحة، ص 39.

[24] المرجع نفسه، ص 42.

[25] ينظر، ابن جنّي، الخصائص، ج 2، ص 12.

[26] Hadj-Salah, A., Linguistique arabe et linguistique générale, tome 1, p. 57.

[27] المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

العربية ببعض التحولات اللغوية كسقوط علامات الإعراب في درج الكلام وتغيير طفيف في النظام الصرفي، وهذا حصل بالطبع في الخطاب العفوي، ووضع النحو لهذا السبب، وصار نظام العربية الفصيح يتحصل عليه بالتلقين، "فما دخل القرن الثالث على الناس حتى اختفت الفصاحة السليقية في الحضر باختفاء البيئات اللغوية الفصيحة فيها، وحافظت مع ذلك البادية على هذه الخصلة هي وحدها"[28] ثم عمّ اللحن في البوادي حتى التحق بالتدريج أهل البادية بأهل الحضر - مع اختلاف شديد بين منطقة وأخرى ابتداء من القرن الرابع كما يشهد على ذلك الجغرافيون العرب الذين زاروا هذه المناطق من شبه جزيرة العرب. ولهذا فإنّ اللغويين في القرن الثالث والرابع كانوا لا يزالون يبحثون عن الفصحاء السليقيين. وهذا ما فعله الأزهري (صاحب تهذيب اللغة) وابن جنيّ إلاّ أنّ هذا الأخير في آخر حياته نجده يقول: "إنّا لا نكاد نرى بدويا فصيحا، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه، لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه، وينال ويغضّ منه"[29].

وفي آخر القرن الرابع اختفت الفصاحة العفوية في كل مكان، وليس معناها أنّ الفصاحة بمعناها الواسع اختفت، بل معناه أنّ اكتساب الفصاحة لم يعد عفويا من سماع الناس؛ لأنها "تحولت إلى فصاحة مكتسبة يحصل عليها كملكة لسانية العربي وغير العربي لا من البيئة الناطقة بالعربية بل بمُلقن إذ إنّ بقاء الفصاحة العفوية في كل لغة سليقية مرتبط ببقاء بيئة فصيحة لا تتكلم إلا بتلك اللغة الفصيحة"[30].

وخلاصة القول إنّ مفهوم الفصاحة عند النحاة العرب الأولين يقتضي أن تكتسب الفصاحة في المنشأ اللغوي الأول عن فطرة، وأن يبتعد هذا المنشأ عن كثرة الاختلاط اللغوي مع طول المدة، ومن جهة أخرى فإن مفهوم الفصاحة عندهم مبني أيضا على كثرة الاستعمال وشيوع الكلمة أو التركيب في لغات العرب، خلافا لما يعتقده الرأي العام في الوقت الحاضر الذي يجعل الفصاحة ترادف التفصّح والبلاغة، متّبعا في ذلك ما وقع فيه العلماء المتأخرون الذين بنوا مفهوم الفصيح على الاعتبارات البلاغية.

2. الفصاحة حديثا

1.2. مفهوم الفصاحة حديثا

يتفق علماء اللغة في تعريف اللغة العربية الفصيحة في زماننا هذا على أنّها "اللغة السليمة من الخطأ والتي تتفق مع الضوابط العامة والقواعد المفيدة لكلام العرب قديما"[31].

2.2. معايير الفصاحة

1.2.2. عند المحدثين

لقد استعمل العرب قديما اللغة العربية استعمالا عفويا ووراثيا، ولما تغيّرت هذه اللغة بحكم الاختلاط البشري احتاج متعلّم اللغة العربية إلى نماذج وقوالب يقتدي بها، ولقد تولّدت عن هذه

---

28 عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 124.

29 ابن جنّي، الخصائص، ج 2، ص 5.

30 عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 135.

31 عباس حسن، اللغة والنحو، ط 2؛ مصر: دار المعارف، 1971، ص 30 و260.

الظاهرة حاجة ملحّة إلى القياس، فكان معيار المحدثين حول الصحة والخطأ في اللغة، السماع والقياس، فكلّ ما سمع عن العرب وقيس عليه، فهو من كلام العرب لاشكّ في صحّته ومن المقاييس التي حدّدوها:

عدم ورود اللفظة في المعاجم

من المحدثين من يخطئ بعض العبارات المستعملة اليوم؛ لأنّها لم ترد في المعاجم العربية القديمة، فهذا اليازجي يمنع استعمال الفعل "بارح"؛ لأنّه كما قال لم يرد في المعاجم العربية[32]. وفي هذا المعنى يقول أستاذنا عبد الرحمن الحاج صالح: "وأما المحدثون فمنهم من بالغ أيضا في تشدّده وأنكر ما لم ينكره القدامى لسوء فهمهم إياهم أو اعتمادهم على ما ورد في القواميس المطبوعة – وتناسوا أنّ ما سكت عنه قاموس قد يكون موجودا في النصوص التي وصلتنا ممّا يعتمد عليه في الاستشهاد...، وما لم يسمع لفظ على خلاف القياس فإنّ كلّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم. فالسكوت عنه شيء ليس دليلا على عدم وجوده أو استحالة وضعه قياسا على ما ورد"[33]. وهذا يعني أنّ المعاجم القديمة قد أغفلت عددا من الألفاظ إما بقصد أو سهوا، أو قصرا، والكلمات التي لم ترد في هذه المعاجم لا يعني عدم صحّتها، فقد أضافت المعاجم التكميلية كثيرا من الألفاظ العربية الفصيحة التي وردت عن العرب. فلإثبات وإقرار صحّة الكثير من الألفاظ التي قال المانعون بأنّها خاطئة لعدم ورودها في المعاجم يجب اللجوء إلى كتب التراث الأدبية عوض المعاجم؛ لأنّ ما استعمل من اللغة العربية لا يستطيع أن ينحصر في المعاجم فقط، ويجب لذلك أن يبحث عنه في التراث العربي.

الاستناد إلى تخطيئ النحاة السابقين

لم يكلّف المحدثون أنفسهم جهدا للحكم على استعمال لغوي بالخطأ أو بالصواب، بل كانوا في كثير من الأحيان يستندون في تخطيئاتهم إلى آراء السابقين ممن كانوا على منهجهم. فقد أثبتوا التطابق الموجود بين "السنة" و"العام" بما جاء في القرآن "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمْ الطُوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ" (العنكبوت/14). فقد دلّ على الكثرة والقلّة بلفظ واحد وهو السنة، في الآية نفسها والمناسبة نفسها. وهذا ما فعله من سبقهم من النحاة.

2.2.2. عند المدرسة الخليلية الحديثة

أما معايير الفصاحة التي يؤخذ بها بعين الاعتبار في المدرسة الخليلية الحديثة* وعلى رأسها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، فهي لا تخرج عن حدود القياس والسماع والاستعمال، وتعكس تماما رأي نظرية النحاة العرب القدامى؛ كونها امتداد لها، ويمكن أن نلخّصها فيما يلي:

---

32 حمّادي محمّد ضاري، حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، العراق: 1981، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ص 200، 201.

33 عبد الرحمن الحاج صالح، "الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية بجامعة الجزائر"، مجلة المعرفة، ع 270، ص 78.

* المدرسة الخليلية الحديثة هي مدرسة لسانية حديثة استمدّت أصولها ومفاهيمها من نظرية النحو العربي القديمة التي أنشأها النحاة الأوّلون الذين شافهوا فصحاء العرب.

السماع من العرب الفصحاء

السماع طريقة استعملت في تدوين اللغة قديما، ولذلك نقول إنّ المدوّنة العربية جمعت عن طريق السماع المباشر للناطقين. وترى المدرسة الخليلية الحديثة أنّ كلّ ما سمع عن العرب وورد في لهجات العرب الفصحاء الذين اكتسبوا العربية باعتبارها لغة أولى منذ نشأتهم في محيطهم غير المتأثر بلغات أخرى صحيح يقاس عليه بالشروط المعروفة، وفي هذا يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: "أمّا مسألة الأصل والوجه الذي يجب أن يرد إليه كلام الناس أو بالأحرى المسلك والهدية التي يجب أن يحتذي بها المتكلّم إذا قال بأنّه يتكلّم العربية فهي لا محالة مذاهب العرب في كلامهم لا كلّ العرب، بل أولئك الذين ارتضيت عربيتهم لبقائهم على سليقتهم وعدم اكتسابهم العربية كلغة ثانية بل حصولهم عليها منذ نشأتهم من محيطهم غير المتأثر بلغات أخرى"[34].

القياس على كلام العرب

يعرّف الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح القياس أنّه "مجمل القواعد أي الحدود والأصول التي استنبطت من المدونة العربية القديمة والضابط لها"[35]. ولقد وضّح ذلك ابن جنّي قائلا: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، ألا ترى أنّك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلّ فاعل ولا مفعول وإنّما سمعت البعض فقست عليه غيره، فإذا سمعت [قام زيد] أجزت: [ظرف بشر] و[كرم خالد]"[36]. فكلّ ما يمكن قياسه على كلام العرب فهو صحيح بدليل أنّ هناك الكثير من العناصر اللّغوية ثبتت صحّتها بالقياس على ما وصلنا من كلام العرب الموثوق بعربيّتهم. وهذا لا يعني أنّ كل ما سمع من فصحاء العرب يكون خاضعا للقياس، بل إنّ بعضه ليس خاضعا للقياس (ولا يقاس عليه)، ولكنه يستعمل كما شيع، فالقياس الذي لا يخالف هو ما استعمله العرب بالفعل. أما ما ليس قياسا وشيع بكثرة منهم فلا بدّ من قبوله ولا يقاس عليه.

الاستعمال

ونعني بالاستعمال كيفية إجراء الناطقين للوضع* في واقع الخطاب؛ أي استعمال الناطقين لنظام اللّغة استعمالا فعليا، وعلى هذا فإنّ الاستعمال الفعلي للّغة في جميع الأحوال الخطابية التي تستلزمها الحياة اليومية هو الذي ينبغي أن يكون المقياس الأوّل والأساسي للفصاحة؛ لأنّ اللّغة المستعملة لغة حيّة مازال وجودها قائما ومنتشرا، وفي هذا السياق يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: "الصواب في كلّ ما يتواضع عليه بين قوم (سواء كان لغة منطوقة أو مكتوبة أم وضعا من الرموز والعلامات) هو أن يجري استعمال الوضع على ما تعارفه أصحاب هذا الوضع وما اشتهر فيما بينهم من أساليب استعمالهم، وهذا ينطبق على جميع الأوضاع الاجتماعية وما اللّغة إلاّ أحد هذه الأوضاع"[37]. فمن خلال هذا النص نفهم أنّ معيار الفصاحة

---

[34] عبد الرحمن الحاج صالح، "اللّغة العربية بين المشافهة والتحرير".

[35] Hadj-Salah, A., Linguistique arabe et linguistique générale, tome 2, p. 462.

[36] ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 357.

[37] ينظر، عبد الرحمن الحاج صالح، "اللغة العربية بين المشافهة والتحرير".

المتّخذ عند أصحاب المدرسة الخليلية الحديثة يقوم أساسا على مبدأ الأكثر شيوعا في الاستعمال وليس على الاستعمال الخاص بفئة معيّنة، وهو أن يستعمل الوضع حسب أساليب الاستعمال التي اشتهرت بين أصحابه، والخروج عن هذه الأساليب المتعارف عليها يعد خطأ ولحنا. فليس كلّ ما هو موجود في الوضع يخرج إلى الوجود في الاستعمال؛ لأنّ الناطقين في ذلك لا يستعملون كلّ النظام اللّغوي، بل جزءا منه فقط حسب مقتضيات أحوال الخطاب التي تستلزمها الحياة اليومية.

3. اللّحن

1.3. تعريفه

يعرف الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح اللحن بأنه ما ليس من كلام العرب؛ لأنه لم يسمع من العرب زيادة على عدم وجوده في القرآن[38]. فهو الخطأ اللّغوي الذي يمس جوهر اللّغة وخاصة بنظاميها الصرفي والنحوي اللّذين تبنى عليهما اللغات (في الأصوات أو في الألفاظ أو في التراكيب أو حتى في دلالة الألفاظ). وكان الفصيح يخطئ كما كانت الجماعات من الفصحاء يخطئون، ولنا فيما ذكره سيبويه أمثلة على ذلك: قال الخليل (ت 175): "لا يقولون إلاّ: هَذَان جُحْرَا ضَبَ خَرِبان، من قبل أنّ الضب واحد والجحر جحران وإنّما يخلطون إذا كان الآخر بعدّة الأوّل وكان مذكّرا مثله أو مؤنّثا. وقالوا: هذه جِحْرَة ضِبَاب خَرِبَةٍ* لأنّ الضّباب مؤنّثة ولأنّ الجحر مؤنّثة، والعدّة واحدة فغلطوا"[39]. "واعلم أنّ ناسا من العرب، يغلطون فيقولون: إنّهم أجمعون ذاهبون، وإنّك وزيد ذاهبان، وذلك أنّ معناه الابتداء، وكان الفصحاء عند ارتكابهم الخطأ يتوهّمون بأنّ كلامهم في ذلك على قياس كلام العرب. وعلى هذا الأساس عرّف سيبويه اللّحن على أنّه خطأ لغوي فقال: زعم يونس أنّ أبا عمرو رآه لحنا، وقال احتبى بن مروان في ذه في اللّحن يقول: لحن، وهو رجل من أهل المدينة، وذلك أنّه قرأ: "وجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاَءِ بناتي هُنَّ أَطْهَرَ لَكُمْ فاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُون فِي ضَيْفِي أليسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيد" (هود، 78) "فنصب"** [40]. وزاد ابن جني في تعريفه للّحن "أنّه مخالفة القياس والسماع معا"[41].

وبناء على هذه التعريفات نرى أنّ كلمة اللّحن كانت تطلق على الخطأ في الإعراب؛ لأنّه أوّل ما ظهر من الخطأ واختلّ من كلام العرب. وأغلب الظنّ أنّه استعمل لأوّل مرّة بهذا المعنى، عندما تنبّه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى الفرق الموجود بين التعبير الصحيح والملحون. ولذلك قال أبو الطيب اللغوي (ت371 هـ): "واعلم أنّ أول ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى

---

[38] ينظر، عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 62.

* وكان عليهم أن يقولوا هذه جحرة ضباب خربة برفع "خربة" لأنها نعت للجحرة، والجحرة هنا مرفوعة.

[39] سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 437.

** وذلك أنه نصب أطهر عوض أن يرفعها.

[40] سيبويه، ج 2، ص 397.

[41] ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 387.

التعلم الإعرابُ"[42] ولما تعدّاه إلى جوانب أخرى من اللّغة العربية في أصواتها أو نحوها أو صرفها، أو معاني مفرداتها... أطلق على كلّ الانحرافات الناتجة عن الاحتكاك اللّغوي بالأجانب.

2.3. عوامل ظهوره

يعود العامل الأساسي في وجود اللّحن وانتشاره كما رأينا إلى احتكاك العرب بغيرهم من الأجناس البشرية، وبهذا الصدد يقول ابن خلدون مسميا اللّحن فساد اللّغة: "ثمّ إنّه لمّا فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أنّ الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة من المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب...، فاختلط عليهم الأمر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى، وهذا معنى فساد اللّسان العربي..."[43].

أمّا العوامل الأخرى[44] التي فسحت المجال لتسرّب اللّحن إلى اللّغة العربية فهي:

أولا الترجمة: وقال عنها الجاحظ: "واللّغتان إذا التقتا في اللّسان الواحد، أدخلت كلّ واحدة منهما الضَيْم على صاحبتها"[45].

ثانيا القياس الخاطئ: أو التوهم كما كان يدعى قديما، وهو أن يصدر الخطأ من شخص واحد للمرّة الأولى، ثمّ يقلّده الآخرون وينتشر تدريجيا، وينتج عن القياس الخاطئ ما يسمى بالأخطاء اللّغوية الشائعة التي يمكن لها بحكم الاستعمال المكثف أن تشيع في اللّغة الفصيحة، وتسود بعد ذلك في أذهان الناس على أساس أنّها صحيحة "ومنها فعل [عَرِفتُ]: فإنّه قيس خطأ على [عَلِمتُ]، وأصله بالفتح [عَرَفْتُ] "[46]. وشاعت في الاستعمال العام على هذا الوجه.

3.3. نتائجه

1.3.3. ظهور العامية وتلاشي الفصحى تدريجيا في التخاطب العفوي

بانتشار اللحن واستفحال الخطأ بين عامة الناس بدأت الفصحى تختفي تدريجيا، حيث نشأ على الألسنة ما يسمى بالعامية؛ اللّغة المستحدثة المولدة في الأوساط العربية والتي جهلها أهل الفصاحة القدامى تماما. وقد احتلت في تبليغ الأغراض اليومية مكان المستوى الاسترسالي الفصيح الذي استخفه العرب الذين أخذت منهم اللغة بعد أن كانت الفصحى في عصر الفصاحة اللغوية تقوم بهذا الدور الحيوي. وهذا لا يعني أنّ الفصحى اختفت اختفاء كاملا في التعبير الاسترسالي؛ لأنّ العامية بنفسها احتفظت بالكثير مما هو فصيح من مفردات وتعابير، إلخ، ويعود سبب ظهور العامية وانتشارها إلى الألسنة الأعجمية التي احتكّت باللّسان العربي وأثّرت فيه، وبقيت اللّهجة العامية على ألسنة الناس، العام منهم والخاص في المخاطبات اليومية طيلة

[42] أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1؛ صيدا بيروت: المكتبة العصرية، 2002، ص 19.

[43] ابن خلدون، المقدّمة، ج 1، ص 614.

[44] ينظر، يمينة سيتواح، مظاهر التداخل اللغوي في لغة أخبار التلفزة الجزائرية، تأثير اللغة الفرنسية في اللغة العربية، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، كلية الآداب، 2006-2007، ص 92.

[45] الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة: مطبعة دار الفكر للجميع، ج 1، ص 386.

[46] رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطوّر اللغوي، ط 1؛ القاهرة: دار المعارف، 1967، ص 42.

القرون الماضية، وامتدت إلى عصرنا هذا، فلا يخلو الوطن العربي من المحيط إلى الخليج من هذه اللّهجات، بل في كلّ قرية لهجة عامية تختلف قليلا أو كثيرا عما جاورها من القرى، وزاد فيها اللّحن والخطأ الشيء الكثير، وتعود عوامل هذه الزيادة إلى احتكاكها باللّغات الأوروبية والحضارة العصرية والمستجدات الحديثة.

2.3.3. إبقاء الفصحى على مستوى التعبير الترتيلي أو الإجلالي

بشيوع العامية بين الأوساط العربية، زاغ الأداء الفصيح للغة العربية في مستوى التخاطب اليومي العفوي، وانحصرت الفصحى في مستوى واحد هو المستوى الترتيلي الذي اقتصر استعماله على المقامات الرسمية التي تتطلب من الفرد التخاطب بالفصحى كإلقاء الخطب والمحاضرات وعلى المكتوب أيضا، وبقيت اللّغة العربية منذ ذلك الوقت تعرف وتلقن على هذا المستوى "واللّغة إذا صارت تكتسب الملكة فيها بالتلقين، وإذا اقتصر هذا التلقين على صحّة التعبير وجماله فقط، واستهان بما يتطلّبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير وابتذال واسع للألفاظ تقلّصت رقعة استعمالها، وصارت لغة أدبية محضة، وعجزت حينئذ عن أن تعبّر عما تعبّر عنه لغة التخاطب الحقيقية سواء أكانت عامية أم لغة أجنبية"[47]. وهكذا اتسع الفرق بين العامية والفصحى.

ومن الأسباب التي ساهمت في ذلك "طرق التعليم اللّغوي ووسائله المتخذة في عهود الجمود الفكري العربي، ونزعة البلاغيين واللّغويين المتأخرين إلى تحصين لغة المثقفين من لغة العامة المبتذلة"[48]. حيث كان الغرض في تعليم العربية هو تحفيظ المتعلّمين أحكام اللّغة وقوانينها قبل إكسابهم القدرة على التعبيرالعفوي السليم، ولم يتفطّن المعلّمون إلى أنّ المتعلّم لا يمكنه الحصول على ملكة اللّسان العربي إلاّ إذا حمل على استخدام كلام العرب الفصيح ودرّب على ذلك حتى تترسّخ المهارات اللّغوية الأساسية في ذهنه؛ لأنّ الملكة كما هو معروف لا تحصل إلاّ بالتمرّن المتواصل. وما هو أخطر من ذلك أنّ هؤلاء المعلمين اعتمدوا في تعليم العربية على كتب النحاة المتأخّرين الذين أغفلوا شأن الملكة اللّغوية، وما تزال هذه الكتب المرجع الذي تنهل منه جميع المؤلّفات النحوية المدرسية المتداولة حاليا في بلادنا وفي كلّ أقطار الوطن العربي.

أمّا بالنسبة لنزعة اللّغويين المتأخّرين فإنّ هؤلاء "نظروا إلى لغة المشافهة بازدراء محاولين تحصين الفصحى من اللّحن والفساد واستهانوا بما يتطلّبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد، ورأوا أنّه لابدّ أن تتميّز الفصحى عن هذه العامية التي طغت على المستوى العفوي من الأداء اللّغوي وبهذه الحجّة فرض على المثقّفين استعمال بعض النماذج في تأدية الكلام الفصيح مراعين في ذلك التبليغ الفني دون التعبير الوظيفي، وامتدت تخطئة الناس حتى بلغت أن منع هؤلاء ما أجازه العرب الفصحاء أنفسهم فصار المثقفون يتحاشون استعمال ما هو شائع على ألسنة العوام،

[47] عبد الرحمن الحاج صالح، "اللغة العربية بين المشافهة والتحرير".

[48] فطومة سويسي، مقارنة تحليلية بين لغة التحرير ولغة التخاطب بالفصحى، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد العلوم اللّسانية والصوتية، 1988، ص 23.

فأصبح ما كثر استعماله مقياسا للابتذال بعد أن كان مقياسا للفصاحة..."[49]. وأصبحت الفصحى لغة أدبية راقية الاستعمال محصورة في فئة معيّنة هي الفئة التي تتقن أسلوبها الأدبي الراقي وغير صالحة للتخاطب اليومي والتعبير العفوي. وبالتالي فقدت حيويتها وعجزت عن التعبير عن الكثير من مفاهيم الحياة، وهكذا صارت اللّغة المستعملة اليوم في قضاء الحاجات اليومية وفي داخل المنازل وفي وقت الاسترخاء والعفوية ليست هي الفصحى المنطوقة التي تخاطب بها العرب في زمان السليقة اللّغوية، بل هي اللّهجات العامية التي عدت فيما بعد لغات أولى يكتسبها الأطفال في محيطهم العائلي وينشأون عليها في محيطهم الاجتماعي العام.

خاتمة

وخلاصة القول إن ظاهرة اللحن في اللغة العربية لم تكن قائمة عندما كانت اللغة ملكة في ألسنة العرب يأخذها الجيل اللاحق عن الجيل السابق، بل ارتبط ظهوره بمجيء الإسلام واختلاط العرب بغيرهم من الأجناس البشرية، فبمخالطة الأعاجم استفحل الخطأ وانتشر بين الناس الخاص منهم والعام، واتسعت بذلك الهوة بين اللغة الفصحى واللغة التي كانت تستعملها عامة الناس إلى أن زاغت الفصحى عن التبليغ والتخاطب اليومي، وحلت محلها اللهجة العامية التي بقيت مستعملة على ألسنة الناس طيلة القرون الماضية، وامتدت إلى عصرنا الحالي، وأصبحت تحظى بالشيوع والانتشار في المحيط الاجتماعي العام أكثر من العربية الفصحى التي صارت لغة ثقافة ولغة التواصل المشتركة بين المجتمعات بعد أن كانت لغة كلّ أنواع التبليغ، وبقيت محدودة الاستعمال في نطاق ضيق لا يتعدى المقامات والمواقف الرسمية، وزاد فيها الخطأ كثيرا، وتعود عوامل هذه الزيادات إلى اللغات الأوروبية والحضارة العصرية والمستجدات الحديثة، ولولا القرآن الكريم الذي حفظ للفصحى مكانتها والعلوم الإنسانية المنبثقة منه لما بقي للغة العربية أيّ أثر يذكر. ويبقى الأمر الذي نؤكده هو أنّ اللحن مرتبط بالسلوك الإنساني واللغة أحد أنواع هذا السلوك ولولا الخطأ لما عرف الصواب.

[49] ينظر، فطومة سويسي، مقارنة تحليلية بين لغة التحرير ولغة التخاطب بالفصحى، ص 25، 26.